إيَّاك والقفو

الحمدُ لله السميع البصير، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وهو العزيز القدير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، البشير النذير، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه، ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعدُ؛ فأوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}.

أيها المؤمنون: احذروا من القَفْوِ بغير علمٍ؛ فإنّ الله تعالى حذر من هذه الخصلة الذميمة؛ التي تمنعك من الارتقاء إلى رب الأرض والسماء؛ فلا تكون مِن أهل الإسراء؛ قال سبحانه في سورة الإسراء في ذكر المبغوضات عنده: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}؛ ومعنى {ولا تقْف} أي لا تقل، ولا تنقل، ولا تتَّبع ما لست مُتَيَقَّنًا منه؛ فلا يجوز أن نقول ما ليس لنا به علمٌ؛ فنَتَّبِع الظنّ والوهم والخيال، والقيل والقال.

أيها المسلمون: قالوا فقلنا نوعٌ من القفوِ، قالوا فَنَقَلْنَا نوعٌ من القفوِ، سمعنا فنقلنا بلا تثبت نوعٌ آخرُ من القفو، أذاعوا فأذعت بلا يقينٍ نوعٌ من القفو، فلا تَتْبَع لسانَك فيما ليس لك به علم فتتكلم بالحدس والظن فإنه نوعٌ من القفوِ، قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم} [الحجرات: ١٢]، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ت أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»[رواه مسلم].

فاحذر أيها المسلم أن تتهم بالظن والتخمين، فتقولُ فلانٌ مختلس نقلا عن فلان، وفلانٌ كذاب اتباعًا لفلان، وفلانٌ بخيلٌ قولًا بلا برهان، ومنه قذفُ الناس بالفسقِ أو الفجور، أو الكذب أو الزورِ، أو اتهامٌ بالغلط أو التقصير.

أي عباد الله: إنّ أعظمُ القفوِ: القول على الله بغيرِ علمٍ، والقول في دين الله بالظن والوهم، وتفسيرُ كلام الله بلا علمٍ، قال الله تعالى في ذكر المحرمات: {وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}، وقال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)}، قال الحافظ ابن كثيرٍ رحمه الله: (ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهّيه).

أي عبدَ الله: ومِن أشد أنواع القَفْوِ الافتراءُ: لا تقل رأيتُ ولم ترَ، وسمعتُ ولم تسمع، وعلمتُ ولم تعلم؛ فإن الله تبارك وتعالى سائلك عن ذلك كله.

والقول بما لا يعلمه القائل يدخل في شهادة الزور، ورَمْيُ النَّاس بالباطل، وادّعاء سماعِ مَا لم يسمعه، ورؤية ما لم يره.

وأصل القفو: العَضْهُ والبَهْتُ؛ فإياك وقصدَ نقلِ قولٍ قفوٍ.

فعليك أن تتحقق من صحة القول **أولًا**، ومن مصلحة القول به **ثانيا**، ومن التعبير عنه بأحسن لفظٍ **ثالثًا**، قال الله تعالى: {قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم}؛ ومن القفْوِ: القول فيما لا يعنيك؛ فتدخل في أمور الخاصة، وأنت من العامة، وتتدخل في أعمال غيرك، وتتكلم في فعال غيرك؛ فتتكلم عن جارِك، أو صاحبك، أو والديك، أو حاكمك؛ فعلوا وفعلوا، وقالوا وقالوا...ظنٌّ ونقلٌ وإذاعة ما لها أساسٌ أو شيءٌ مفخَّم مرادٌ به المساس؛ فلا تقل للناس، وفيهم، ما لا علم لك به، فترميهم بالباطل، وتشهد عليهم بغير الحقّ، فذلك هو القفو، ومن القفوِ: أن ترى القذاة في عين أخيك، ولا ترى الخشبة على رأسك.

أيها المؤمن: اِرْفَق بسمعك، اِرفق بعينك، اِرفق بلسانك، اِرفق بقلبك؛ فإن الله سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها، مِن أنه سمع أو أبصر أو قال أو علم، تشهد عليه جوارحه {كل ذلك كان عنه مسؤولا}؛ فقلل الكلام قدر ما تقدر إلا في الخير، وقلل قولَ علمتُ وظننتُ وخلتُ وعلى بالي، حتى تبتعد عن القفوِ؛ فإن اللَّه تعالى يَسْأَل سَمْعَ الإِنسان وبَصَره وفُؤَاده عمَّا قال مما لاَ عْلَم له به، فيقع تكذيبه مِنْ جوارحه، وتلك غايةُ الخزْي، وأيضًا؛ فإنّ اللَّه تعالى يسأل الإِنسان عما حَواه سمعه وبصره وفؤاده، {هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، أقول ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم؛ فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمدُ لله الذي جعل لنا السمع والبصر والفؤاد، أحمده سبحانه على ما أنعم به علينا وعلى البلاد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو رب العباد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد الحاضر والباد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه من العباد؛ وبعدُ:

أيها المسلمون: اتقوا الله تعالى، واعلموا أنكم غداً موقوفون بين يديه، ومؤاخذون على ما قلتم، وسمعتم، ونقلتم؛ فاتقوا الله وأعدوا ليوم الحساب جوابًا، ومع الجواب صوابًا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)}.

أيها المسلم: عليك بالدعاء أن يَكُفّ الله عنك شر لسانك؛ فإن مَن لم يَكُفَّه فلا محالة هالك؛ فعن شَكَلِ بْنِ حُمَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي تَعَوُّذًا أَتَعَوَّذُ بِهِ. قَالَ: فَأَخَذَ بِكَفِّي

فَقَالَ: "قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي" [رواه الإمام أحمدُ، والترمذي، وقال: حسن غريب].

يا عبدَ الله: لا تَدَعْ جَدْوَلَ سمعِكَ يجرى فيه أُجَاجُ الباطل؛ فيُلْهِبَ باطنَك بنار الحِرْص على العاجل، السَّمْعُ قُمْعٌ تَعُور فيه المعاني المسْمُوعة إلى قرار وعاء القَلْب، فإنْ كانَتْ شريفةً لطيفةً، شرَّفَتْه ولطَّفَتْه وهذَّبَتْه وزكَّتْه، وإن كانَتْ رذيلةً دَنِيَّةً، رذَّلَتْه وخبَّثَتْه، وكذلك البصَرُ منْفُذٌ مِنْ منافذ القلب، فالحواسّ الخمس كالجداول والرَّواضع تَرْضَعُ مِن أثداءِ الأشياء التي تُلابِسُها، وتأخذ ما فيها مِن معانيها وأوصافها، وتؤدّيها إلى القَلْب وتَنْهِيهَا؛ فعوِّد نفسك سماع الخير، وقول الخير، وإياك والهذرة، فعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ" [رواه مسلم].

وجاء عند أبي داود بسند ضعيفٍ: "بئس مطية الرجل زعموا"، وهذا ذمٌّ للقفوِ؛ وإنما يقال: "زعموا" "قالوا" في حديث لا سند له، ولا ثبت فيه، وإنما هو شيء يُحكى على الألسن على سبيل البلاغ، نؤدي اللي علينا، نقول اللي سمعنا؛ فذُمَّ مِن الحديث ما كان هذا سبيله، وأُمِرْنا بالتثبت فيه، والتوثيق لما يحكيه من ذلك، فلا يرويه حتى يكون معزوّاً ومروياً عن ثقة، معروفا بالتثبت.

أي عباد الله: روى الإمام أحمدُ بسندٍ صحيح عن عبد الله بن عمرَ ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "أَفْرَى الفِرَى من ادعى إلى غير أبيه، وأفرى الفرى من أرى عينيه في النوم ما لم تر، ومَن غير تخوم الأرض"؛ فإذا كان الإنسان يقول إني رأيت في المنامِ وهو لم يرَ وإنما كذب على نفسه أفْرَى الفِري؛ فكيف بمن يقول: رأيتُ شُفتُ سمعتُ على الناس وهو لم ير ولا شاف، ولا سمع!؟

أيها المؤمنون إن الله يأمركم فأتمروا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}، اللَّهُمَّ احفظ ألسنتنا من القيل والقال، ومن الهذرة في المقال، وأسماعنا من سماع الكذب والظن والغيبة والنميمة، وأعيننا من الخيانة، وأَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ. اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَذِلَّ الشِّرْكَ وَالمُشْرِكِينَ، وَانْصُرْ عِبَادَكَ المُوَحِّدِينَ، وَاصْرِفْ عَنَّا كُلَّ شَرٍّ وَسُوءٍ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا يَا رَبَّ العَالَمِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِينَا وَلِلْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ احْفَظْ أَمِيرَ الْبِلَادِ وَوَلِيَّ عَهْدِهِ، وَوَفِّقْهُمَا لِمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى، وَأَصْلِحْ لَهُمَا البِطَانَةَ وَالرَّعِيَّةَ، وَاهْدِهِمَا لِلْحَقِّ وَالصَّوَابِ، واجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً مُطْمَئِنًّا، سَخَاءً رَخَاءً، دَارَ عَدْلٍ وَإِيمَانٍ، وَأَمْنٍ وَأَمَانٍ، وَسائِرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.